مجلة آفاق علمية ISSN: 1112-9336
المجلد: 11 العدد: 03 السنة 2019 رقم العدد التسلسلي 20

تاريخ الإرسال: 2019/04/29 تاريخ القبول:2019/05/17

توظيف تراث إقليم الساورة بصحراء الجزائر في الرواية الجزائرية المعاصرة قراءة تطبيقية تحليلية في رواية "الخابية" لجميلة طلباوي أنموذجا

Employment of the heritage of the province of Saoura in the desert of Algeria in the contemporary Algerian novel An analytical applied reading in the novel "Alkhabia" by Djamila Talbawi

بوعافية أحمد

جامعة الجزائر 2

كلية اللغة العربية وآدابها واللغات الشرقية

قسم اللغة العربية وآدابها

boumanal11@gmail.com

ملخص البحث

إقليم الساورة بالصحراء الجزائرية أرض التاريخ والحضارات، لها صورة عجيبة بما تحمله أرضها وجغرافيتها وشعبها من ثقافات عريقة، وعادات وتقاليد وتجارة وفلاحة ، بالإضافة إلى تميّزها في العطاء الديني و الأدبي و العمراني ، مما جعلها تفتخر بثراء تراثها المادي واللامادي ، فهو تراث شعبي ضخم ومتنوع بامتياز ، لذا فالبحث عن جماليات تراث الساورة يتطلب منك الوقوف على آدابها وسردياتها، والغور في حضارتها للتكتشف كنوزها وأصالتها وعراقتها ، فهي تتسم بجمالية الفضاء بأبعاده الفنية والجغرافية و الانثروبولوجية و التراثية .

الكلمات المفتاحية : توظيف، التراث ، الصحراء، الساورة ، الرواية.

Abstract :
The territory of the Saoura in the Algerian Sahara a land of history and civilizations, it has a fantastic image Including its land, its geography and its people of an authentic culture, and customs, traditions, trade and agriculture, as well as distinguished in the tender religious, literary and urban, which makes him proud of the wealth of his tangible and intangible heritage. It is a huge and diversified popular heritage of excellence, so the search for the aesthetics of the heritage of the Saoura requires that you stand on their literature and their narratives, and the deepening of its civilization to discover their treasures, their originality and their authentic, they are characterized by aesthetics of space in its artistic, geographical, anthropological and inheritance dimensions.
Keywords: Employment, Heritage, Desert, Soura, Novel

مدخل:

الصحراء الجزائرية بيئة خصبة تضم العديد من الموروثات المادية واللامادية، فهي مجالا فسيحا ورحبا للعديد من الطقوس والعادات والتقاليد ومختلف العلوم ، فالفرد الجزائري الصحراوي ظل مرتبطا بموروثاته الشعبية بمختلف أنواعها وفنونها ،لما لها من فائدة نفسية واجتماعية على حياته اليومية ، فالتراث مزيج بين التفريغ عن النفس بالتسلية والمرح، وشحن العقول بالأفكار و العلوم ، فهو ترسانة من الخبرات والتجارب والفنون عبر السنين اكتشفها الإنسان السالف ليورثها إلى اللاحق بهدف ترسيخ الإنسانية عبر العصور .

ما نراه في صحراء الجزائر أن التراث أمدنا وعرفنا بهويتنا العربية الجزائرية، والتي تميزنا عن الشعوب الأخرى ، فغرفنا منه شتى العلوم والمعارف والثقافات والعادات والتقاليد ، ولولاه لما أعدنا كتابة الذاكرة الشعبية ، فهو أساس الحضارة وتاريخ الأمة، ومزاياه على الإنسان الصحراوي الجزائري متعددة وكثيرة ، لذلك وجبت المحافظة عليه والتعريف به ، ومن أهم أقاليم الصحراء الجزائرية الغنية بالموروثات

المادية واللامادية نجد إقليم الساورة ، حيث عَرف هذا الإقليم تنوعا في الكتابة الروائية من طرف العديد من الكُتاب والمؤلفين ، أبرزهم الصحفية والقاصة والروائية جميلة طلباوي في روايتها "الخابية" ، فقد استطاعت الروائية أن توظف العديد من الموروثات المادية واللامادية الموجودة بإقليم الساورة في روايتها ، إيمانا منها في الحفاظ على التراث عبر الأجيال من خلال الكتابة الأدبية.

1- مفهوم التراث وأنواعه :

ورد مصطلح التراث في القرءان الكريم ، في قوله تعالى ﴿ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلا لَّمًّا ﴾[1] ، والتراث المقصود في هذه الآية هو الميراث.

التراث لغة : في المعجم الوسيط وَرِثَ فلانا المال ورثه وِرْثًا ، ووَرْثًا ،وإِرْثًا، ورِثة ، ووِراثة : صار إليه ماله بعد موته . ويقال وَرِثَ المجد وغيره .ووَرِثَ أباه ماله ومجده : ورِثه عنه .فهو وارث جمع وَرثة ، ووُرَّاث [2]

التراث إصطلاحا : من أهم التعاريف الاصطلاحية للتراث ما قاله : حسن علي المخلف فقد عرفه على أنه "إرث مادي ومعنوي تتناقله الأجيال"[3] .

1-2- أنواع التراث :

- تراث مادي: التراث المادي مرتبط دائما بالموجودات المادية (العينية)، حيث يشمل: الآثار والمباني والأماكن الدينية والتاريخية والتحف من منشآت دينية وجنائزية كالمعابد والمقابر....، ومبان حربية ومدنية مثل الحصون والقصور، والقلاع والحمامات، والسدود والأبراج، والأسوار، التي تعتبر جديرة بحمايتها والحفاظ عليها بشكل أمثل لأجيال المستقبل.[4]

- تراث لا مادي : أشارت اليونيسكو في إتفاقية حماية التراث الثقافي غير المادي إلى ما يلي: يتجلى "التراث الثقافي غير المادي "بصفة خاصة في المجالات التالية:[5]

أ- التقاليد و أشكال التعبير الشفهي، بما في ذلك اللغة كواسطة للتعبير عن التراث الثقافي غير المادي.

ب- فنون وتقاليد أداء العروض.

ج- الممارسات الاجتماعية والطقوس والاحتفالات.

د- المعارف والممارسات المتعلقة بالطبيعة والكون.

هـ. - المهارات المرتبطة بالفنون الحرفية التقليدية.

2- نبذة تعريفية عن إقليم الساورة:

إقليم الساورة أحد أقاليم الصحراء الجزائرية يقع ناحية الجنوب الغربي الجزائري عاصمته بشار، وهي إحدى ولايات الجمهورية الجزائرية، يحده من الشمال ولايتي البيض والنعامة، ومن الجنوب ولاية تندوف، ومن الشرق ولاية أدرار ومن الغرب المملكة المغربية، يتمتع هذا الإقليم بمناخ قاري حار في الصيف وبارد في الشتاء ، مع قلة وتذبذب في نسبة الأمطار السنوية، يتكون سطح الإقليم من تضاريس متنوعة كالجبال والوديان، السهول، الرق والحمادة والعرق، تُمثل الفلاحة موردا اقتصاديا لساكنة الإقليم بفضل الأراضي الصالحة للزراعة، ومياهها الباطنية، من أهم محاصيل الإقليم: التمور، الخضراوات، التين ، اللوز، الحبوب...، كما يضم الإقليم ثروة حيوانية هائلة كالجمال والماعز والأبقار...، إقليم الساورة إقليم سياحي رائع يضم العديد من المواقع الأثرية، والموروثات الثقافية: كالقصور والقصبات، الرمال والواحات والفقاقير...، من أهم مواقعها السياحية: تاغيت، القنادسة، بني عباس وتبلبالة.

3- توظيف تراث إقليم الساورة بصحراء الجزائر في رواية "الخابية" لجميلة طلباوي :

سيظل التراث بشقيه المادي واللامادي أحد القوى الرئيسية المُشكلة لثقافة الإنسان في الصحراء الجزائرية كونه المُغذي الأساسي لهوية الشعوب ، فهو ضرورة إنسانية ومرجع تاريخي، ولضمان المحافظة عليه وجب تفعيله وإثرائه ليُسهم في تحقيق وتعزيز الثقافة الجزائرية ، وبما أن إقليم الساورة بالصحراء الجزائرية يعتبر خزانا للموروثات الشعبية تشمل مختلف مظاهر الحياة الاجتماعية و العلمية و الثقافية و الفنية والعمرانية. لذا فإننا سنقوم بقراءة تطبيقية تحليلية عن أهم الموروثات المادية و اللامادية بإقليم الساورة بالصحراء الجزائرية من خلال رواية "الخابية" لجميلة طلباوي .

3-1 : التراث المادي : نجد في الصحراء الجزائرية أن التراث المادي اكتسبه الإنسان السابق من بيئته التي يعيش فيها وبما جادت به الطبيعة من تراب وطين وماء وخشب و جلد و صوف ...، هذه المواد الأولية كانت كافية وكفيلة لصناعة ضرورياته في الحياة . فالتراث المادي بإقليم الساورة يضم العديد من العناصر أهمها : الفقارة ، القصور، القصبات، الأضرحة، المواقع الأثرية ، المخطوطات....، وللتعريف بهذا الموروث المادي الثقافي الشعبي وظفت الروائية جميلة طلباوي من خلال روايتها " الخابية" مجموعة من العناصر التراثية المادية الموجودة بمنطقة الساورة ، كما يأتي:

3-1-1-القصور وما تعلق بها: القصر هو تجمع سكاني تحيط به واحات النخيل ، دوره الأساسي التحصين به من هجمات العدو ، من أهم قصور الساورة نجد:

- قصر تاغيت العتيق: تاغيت أو الواحة الحمراء ، يمتد عمرها منذ أكثر من أحد عشر قرنا ، تزخر بالعديد من القصور المبنية بالطين ومواد النخيل ، تضم منطقة تاغيت 24 قصرا أهمها قصر تاغيت العتيق ،هذا القصر مُشيد فوق هضبة صخرية تُطل على قرية تاغيت وواحتها ، هندسته المعمارية تُعبِّر عن أصالة وتاريخ مجتمع الساورة ،عرف القصر ترميمات عديدة مما ساعد في بقائه شامخا.

استطاعت طلباوي أن تُشير إلى هذا المعلم التاريخي وهو القصر العتيق بتاغيت حيث تقول من خلال البطل سارد الرواية و هي شخصية فاتح : " وقد زرتها رفقة ابنها جاري خليفة أكثر من مرة في بيتها الصغير في الزاوية التحتانية بمدينة تاغيت ، .. " [6] ، كما أشارت إلى رماله وسحره : " ..وأنا كنت بحاجة إلى رمال تاغيت وسحر قصرها العتيق..." [7]

- القصر العتيق ببلدة لحمر : ذكرت طلباوي بلدة لحمر والتي تضم العديد من القصور أهمها قصر مومنة ، قصر عمران، قصر فلقاسن ، والقصر العتيق و التي أشارت له الروائية عبر السارد بقولها : "اخترت له مكانا محاذيا لأطلال القصر القديم ببلدة لحمر على بعد 30 كم من مدينة بشار" [8]

– قصور بلدة تيمودي : وقفت طلباوي على العديد من القصور ببلدة تيمودي ، لتنقلها إلى القارئ ، فتوظيفها لأسماء القصور كان هدفا منها في الحفاظ على الموروث التاريخي للساورة ،حيث يقول السارد : " تنقلنا سوية إلى بلدة تيمودي ، قطعنا 391 كم لنصل إلى هذه البلدة الملتحفة بالسكون وسحر الرمل والنخيل ...القصور فيها لا زالت تحفظ بعض ملامحها ، قصر المية ، قصر الشارف ، قصر الطويل ، قصر سيدي داود ، قصر سيدي بن عبد الله ، قصر بوطرفاية .. اخترت تيمودي بالضبط لأن سور أحد قصورها لا زال شامخا فيها ، وأنا يسحرني في القصور شموخ أسوارها .." [9]

لكن للأسف الكثير من قصور الساورة تعرض للخراب والدمار مثل ما هو واقع في القصر القديم أو ما يُعرف بقصر تاغدة ، وهذا ما يجعلها في حاجة للترميم والصيانة ، فقد أشارت الكاتبة لتدهور حالة بعض القصور ، يقول السارد : "..... ، لقد تحول إلى أطلال ، لم يبق من سوره إلا حائط صغير ، بعدما كان شامخا وفيا للأيدي الطيبة التي بنته من طين الأرض المجفف ، وأخشاب النخيل لتتحصن فيه من الغزاة . " [10]

كذلك، و في نفس السياق حاولت الروائية أن تُعطي صورة عامة عن القصر و مظاهره ووظائفه وما يحتويه ، يقول السارد في هذا : "..... ، لقد تحول إلى أطلال ، لم يبق من سوره إلا حائط صغير ، بعدما كان شامخا وفيا للأيدي الطيبة التي بنته من طين الأرض المجفف ، وأخشاب النخيل لتتحصن فيه من الغزاة .لم يكن قصر سلاطين ، كان مجرد تجمع سكاني يحيط به سور عال ، حُفر فيه بئر ، يتوسط القصر مسجد والجزء الذي يسمونه الجماعة أو (تجماعت) والتي كانت بمثابة المحكمة .الأزقة فيه كتومة تمد أذرعها الترابية لتلتقي جميعا في الساحة الكبيرة التي شهدت أعراس ساكنيه ، ومنها لطالما سُمعت طلقات البارود إيذانا بموسم الأفراح " [11]

فالساورة استمدت استقرارها وأمنها من أسوار قصورها القديمة ، يقول فاتح السارد وهو يسأل عمي عاشور زوج أمّ الخير في ذلك :

" قلت له مرة مازحا :

– هناك أمر عجيب لم أفهمه ، كم كنت أخاف الظلام وأنا صغير ، لكن لم أشعر بالخوف يوما وأنا أدخل الأزقة المظلمة في القصر ، ما السرّ في ذلك ؟

تململ عمي عاشور في برنسه وقال :

– السور يا ولدي هو الذي يعطينا هذا الشعور بالطمأنينة ، بأننا في منأى عن الخطر ، من دخل القصر فهو آمن" [12]

فالمتأمل لسور القصور يمكن أن يطرح سؤالا .كيف استطاعوا أن يبنوا سورا بهذا الارتفاع في تلك الحقب التاريخية القديمة البعيدة عن التطور والمكننة ، تجيبنا طلباوي عبر الحوار الذي دار بين سارة وزوجها فاتح : " ..تساءلت سارة:

– كيف استطاعوا أن يبنوا سورا بهذا الارتفاع في تلك الفترة ؟

– السر في التويزة ، (التويزة) يا سارة تعني التعاون ،كانوا يتعاونون و يتكاتفون من أجل تحقيق إنجاز معين في هذه الحياة " [13]، زودتنا الكاتبة بمظهر من مظاهر الحياة ، والذي كان سائدا في جُل أقاليم الصحراء الجزائرية، وهو مظهر التويزة ، فالتويزة دليل على التكاتف الاجتماعي بين ساكنة إقليم الساورة.

3-1-2: الفقارة وما تعلق بها: نظام السقي بالفقارة نظام قديم متوارث منذ القدم، يعتمد هذا النظام على السقي بالمياه الارتوازية عبر ما يُعرف بنظام الفقارة ،الهدف منها سقي واحات النخيل والتزود بالمياه الصالحة للشرب، نجد الفقارة بكثرة في أقاليم توات (قورارة، توات الوسطى ، تيديكلت) ، وكذا بإقليم وادي الساورة ، " أما وادي الساورة الذي يجري حتى فم الخنك (فم الخنق) ، فتمتد غدائره حتى لقصابي ، وتحتفظ هذه الغدائر بالمياه خلال الصيف ، وهي التي تشرب منها الحيوانات ، ومن جهة أخرى يغذي الوادي آبارا واسعة وغير عميقة تتجمع بها المياه للسقي في الفكارات (الفقارة) ، التي يعتمد عليها سكان الوادي ، بحيث لا يعتمدون على مياه النهر إلا بشكل ثانوي في حين يعتمدون في ري النخيل على الفكارات " [14] ، لكن للأسف الشديد وبالرغم من المجهودات الجبارة التي قامت بها الدولة الجزائرية في

الحفاظ على هذا الموروث ،إلا أن نسبة الفقاقير في تراجع مستمر نتيجة الإهمال وعدم الاهتمام بها .

طلباوي لم تذكر إسم الفقارة صراحة في روايتها، لكنها ذكرت ما تعلق بالفقارة وهي الساقية، فالساقية من أهم أجزاء الفقارة ،فهي ممر للماء النابع من الفقارة إلى القصرية (موزع الماء) ، يقول السارد وهو يخاطب خليفة إبن خالتي ياقوت في ذلك: " أعرف ما بك يا خليفة ، أنت بحاجة إلى خبزة بصل من يد خالتي الياقوت ، وشربة ماء من ساقية الجنان "[15]

3-1-3- ما يُصنع من النخلة وما تعلق بها: اعتنى سكان الساورة بالنخلة كونها مصدر الحياة في الصحراء ، كما أن زراعتها تتلائم مع المناخ الصحراوي الحار ، زرعها سكان الساورة بغرض استهلاكها و المتاجرة بثمارها و استعمال مشتقاتها ، من أهم التمور الموجودة بإقليم الساورة : الفقوس ، الرطبي ،المعسلة ، حميرة ...

ففضل النخلة على سكان وادي الساورة كبير جدا ، وهذا ما ذكرته طلباوي على لسان خالتي ياقوت ، حيث تقول " احمدنا ربّي على الماء و على التمر " [16]، وبخصوص الاستعمال ، فمشتقات النخيل كانت متعددة ، من أهم استعمالاتها أنها كانت مصدرا لبناء القصور وتشييدها، يقول السارد: "..... ، لقد تحول إلى أطلال ، لم يبق من سوره إلا حائط صغير ، بعدما كان شامخا وفيا للأيدي الطيبة التي بنته من طين الأرض المجفف ، وأخشاب النخيل لتتحصن فيه من الغزاة " [17]

3-1-4- المطبوخات والمشروبات:

بإقليم الساورة العديد من المأكولات والمشروبات ، والتي غالبا ما يكون مصدرها محلي ، فالأكلات والمشروبات الشعبية تراث متوارث جيل بعد جيل ، وهذا ما نلحظه في بقاء وتداول العديد من المطبوخات والمشروبات إلى يومنا هذا.

أ) المطبوخات : من أهم المأكولات الموجودة بإقليم الساورة و التي ذكرتها طلباوي في روايتها :

– خبز المخلّع: يقول السارد فيه : " انهماك خالتي أمّ الخير في تحضير (خبز المخلّع) الذي تعبق منه رائحة البصل ، والتوابل ، كان أحلى النوافذ التي أطل منها مجدّدا على الحياة ببساطتها وحلاوتها . " [18]

– خبز المطلوع : يقول السارد في ذلك " الأطفال لا زالوا يبيعون الحمص والفول ، والخبز (المطلوع) على قارعة الطريق بالقرب من السوق، .." [19]

– المردود الحار: أشارت إليه أيضا ،يقول السارد: "جلسنا صامتين نتناول المردود الحار الذي تعدّه والدتي بالأعشاب البرية ونتابع الأخبار في التلفزيون.." [20]

– الحريرة : ذكرتها الكاتبة في حوار دار بين فاتح وصديقه عيسى ، يقول عيسى : " جلست يومها كصنم أحتسي الحريرة التي أعدّتها والدتك بالقرطوفة و الأعشاب البرية ... " [21]

– الكسكسي والمسمن والبغرير : ذكرت الكاتبة أسماء هذه المأكولات على لسان فاتح السارد وهو يصف دهشة زوجته سارة وهي ترى : "..زوجات الأبناء كل واحدة عرفت دورها فأتقنته ...،وهن يزينّ الأطباق بالكسكسي والمسمن والبغرير." [22]

ب– المشروبات : يستعمل سكان إقليم الساورة مثل غالبية سكان الصحراء الجزائرية مجموعة من المشروبات اليومية :الماء والحليب والشاي ، حيث أشارت الكاتبة إلى أهم مشروب يومي وهو :

– الشاي : هذا المشروب يُحضر عدة مرات في اليوم ،كونه مشروبا يُقدم للضيوف ، و أنيسا مهما في جلسات السمر ، تروي لنا المؤلفة عبر ساردها طقوس جلسات الشاي مع خالتي أمّ الخير في قولها : "...، تحضر بعد ذلك صينية نحاسية دائرية الشكل وضعت فيها كؤوس الشاي في تنسيق جميل ، يتوسطها الإبريق وإلى جانبه الكأس الخلاط الذي يوضع فيه النعناع ، ولا بد لربيعة الشاي وربيعة السكر أن تأخذا مكانهما في هذا الأوركسترا الشايوي.. تتحرّك يد خالتي أمّ الخير بخفة الشابة العشرينية وهي تصبّ لنا الشاي ، .. " [23]

3-1-5- الملابس والأفرشة: اللباس والفراش التقليدي نجده حاضرا بإقليم الساورة، بأسماء وأشكال متعددة ، حاولت طلباوي أن تُوظف ثلة من أسماء الملابس التراثية الموجودة في المنطقة ، وقد سلطت الضوء على مجموعة منها:

- ليزار ، والغنَّاس : إسمان تراثيان ذكرتهما الروائية ، يقول السارد " والدة جاري خالتي الياقوت تلك السيدة الطاعنة في السن وفي الوجع ، ... ، كما عرفتها دائما كانت تلبس ليزار ، لباسها الأصيل ، وتغطي رأسها بالغنّاس الذي نسجته بأناملها السمراء.." [24].

- الفرّاشية التاغيتية وفراش البراكنو التاغيتي، الزربية ومخدات الخملة: أشارت طلباوي إلى أهم الأفرشة بمنطقة الساورة، يقول السارد وهو يزور بيت جاره خليفة:" كنت زرته البارحة في بيته وانتبهت إلى غياب الفرّاشية التاغيتية وفراش البراكنو التاغيتي، رأيت كيف أنه استبدلهما بالسجاد الإيراني والسجاجيد الصينية،..."[25]، هنا ذكرت الروائية الزربية ومخدات الخملة، يقول السارد وهو يقوم بواجب الضيافة لـ (نانسي) الزائرة الأمريكية إلى الجزائر: "هنأتها على بحثها ودعوتها إلى النوم في إحدى غرف بيت العائلة، أثّثتها بكل ما هو تقليدي من زربية إلى مخدات الخملة،"[26]

3-1-6- العطور والروائح ومواد الزينة : العطور والروائح ومواد الزينة لها نكهة خاصة في حياة المرأة بإقليم الساورة فهو تقليد يومي وفي جميع المناسبات والأعياد ،هذا التقليد لا زال ممتدا إلى يومنا الحاضر ، من أهم الأسماء التي ذكرتها الكاتبة في هذا المجال نجد ما يلي :

- البخور و الجاوي: يقول السارد وهو يدخل بيت خالتي أمّ الخير :" ولجنا البيت القصوري وكأننا نلج معبدا هنديا البخور تعبق في المكان برائحة الجاوي ، خالتي أمّ الخير تعتقد بأن الجاوي يطرد الأرواح الشريرة والحسد ، لا بد من هذا البخور بعد تنظيف البيت وترتيبه ... " [27]، كما ذكرت هنا طلباوي البخور كطقس من الطقوس المستعملة في بعض السهرات الموسيقية الشعبية، يقول السارد وهو يصف أنغام القناوي بقوله: "سهرة القناوي كانت رائعة ، ... وعندما يفتح المعلم بلال المحلة

ويخرج الكرابيج ويبدأ في توحده مع شيء لا مرئي يهزّ جسده الأسمر ، تتصاعد البخور ، ومعها تتعالى أنغام القنمبري ، .... " [28].

– الحناء و المسواك: ذكرت الكاتبة بعضا من الأعشاب البرية وهما: الحناء و المسواك ، فالحناء عشبة خضراء توضع في اليد ، أما المسواك فهو عشبة توضع على الشفاه بغرض التجمل،يقول السارد : " وزوجات الأبناء كل واحدة عرفت دورها فأتقنته . أيديهنّ المخضبات بالحناء الممزوجة بعرق القناعة ، ... ضحكاتهنّ فيها صفاء يزيد من توهّج المسواك في شفاههنّ المكتنزة ، .." [29].

3-1-7- الحرف والصناعات التقليدية :

نجد في إقليم الساورة العديد من الحرف والصناعات التقليدية والتي تختلف صناعتها باختلاف مادتها الأولية فمنها الطينية والنباتية و الجلدية ، و المعدنية ، فقد ذكرت لنا الكاتبة مجموعة من هذه الحرف والصناعات :

– الخابية : هي آنية فخارية كبيرة توضع فيها المؤونة ، فالرجل في الصحراء هدفه الأسمى منع الخابية من النفاذ ، وفي ذلك دلالة على الصراع من أجل البقاء ، وقد أصابت الروائية في عنونة روايتها بـ : " الخابية " ،لانعكاسها السيميائي على أحداث متنها الروائي ، فوجود المؤونة في الخابية دلالة على استمرارية الحياة وفراغها يعني هلاك الإنسان، بمعنى آخر الخابية هي الحياة ، وقد ذكرتها الكاتبة عدة مرات في روايتها ، يقول السارد :" في هذا القصر بقايا بيت جدي وعطره الذي كان من حكايا الماضي .. الخابية كانت أهمّ أجزائه ، فيها تُذخَر المؤونة للأيام العصيبة ،.." [30]، من جهة أخرى تشير طلباوي بطريقة غير مباشرة إلى ضرورة الاستثمار في العنصر البشري كونه تأشيرة مرور للحضارة وعدم التخلف بدل الاهتمام الزائد بمؤونة الخابية. استحضر السارد كلام الدرويش الذي كان يقول له دائما:"– هاد الخابية يجي البحر و ياخذها . قلت له مطمئنا : – لكن هذه الخابية مؤونتها لا تنفذ ، هي أنا وعيسى وقدور والآخرون "[31]

– القلة و آنية البخور : من الأواني التقليدية المصنوعة من الفخار ،والتي حاولت الكاتبة توظيفها توظيفا مباشرا في سرديتها ، فالقلة هي آنية فخارية يوضع فيه الماء

بغرض التبريد ، أما آنية البخور أو كما يسميه البعض (البخار) فهو آنية فخارية صغيرة يوضع فيه الجمر مع البخور . يقول السارد في ذلك وهو يستضيف الضيفة الأمريكية : " هنأتها على بحثها ودعوتها إلى النوم في إحدى غرف بيت العائلة ، أثّثتها بكل ما هو تقليدي من زربية إلى مخدات الخملة ، وحتى تلك التفاصيل الصغيرة التي تصلح كديكور مثل القلة وآنية البخور وغيرها،.." [32].

– طبق من الطين الأحمر : من الأواني التي تصنع من مادة الطين نجد طبق الطين الأحمر ، لم تذكر لنا الكاتبة الإسم التراثي لهذه الآنية ، لكنها وصفتها وصفا ظاهريا ، لتوضحها للمتلقي ، يقول السارد في ذلك: " فوق مائدة خشبية صغيرة أمامنا تضع خالتي أمّ الخبز المخلّع في طبق من الطين الأحمر له بريق، مزخرف برسوم وأشكال هندسية بألوان مختلفة ، الأزرق ، الأبيض، الأسود... " [33]

– قطع الفضة : حلي الزينة والذي يصنع من معدن الفضة متعدد الأشكال والأنواع فقد أشارت الروائية إلى حلي الفضة كأساس للتزين والتجمل عند المرأة في قولها على لسان السارد : " وزوجات الأبناء كل واحدة عرفت دورها فأتقنته ...، راضيات ببعض قطع الفضة تزينهنّ ،.." [34] ،الكاتبة ذكرت هنا الاسم التراثي لما يوضع في اليد من الفضة وهي الأساور ،يقول السارد وهو يصف لنا خالتي أمّ الخير في قوله:" تتحرّك يد خالتي أمّ الخير بخفة الشابة العشرينية وهي تصبّ لنا الشاي، تطقطق الأساور الفضية في معصمها الذي وشمته بشكل جميل لجريد النخيل." [35]

– الصينية النحاسية : في الساورة أغراض تحضير الشاي توضع دائما فوق صينية نحاسية، فالصينية النحاسية إحدى الحرف التقليدية المصنوعة من مادة النحاس، تقول عنها الكاتبة عبر ساردها ما يلي: "..، تحضر بعد ذلك صينية نحاسية دائرية الشكل وضعت فيها كؤوس الشاي في تنسيق جميل ، يتوسطها الإبريق وإلى جانبه الكأس الخلاط الذي يوضع فيه النعناع ، ولا بد لربيعة الشاي وربيعة السكر أن تأخذا مكانهما في هذا الأوركسترا الشايوي.. " [36]

– آلة العود : ذكرت الكاتبة آلة العود في روايتها ، و هو من الآلات الطربية الوترية المصنوعة من الخشب ، له حضور واسع في أغلب أقاليم الصحراء الجزائرية على

غرار إقليم الساورة ، يقول السارد : " جلست إلى تلك الطاولة استسلمت لموسيقى الفوندو للفنّان البشاري (علا) وهو يرسم بالعزف على عوده فتنة الصحراء " [37].

– آلة القمبري : آلة وترية مصنوعة من الجلد والخشب ، تستعمل في أنغام موسيقى القناوي ، ذكرت الكاتبة هذه الآلة للتعريف بها، يقول فاتح السارد : " – سهرة القناوي كانت رائعة ، المعلم بلال فتح الْمحَلَة .هو يعرف جيدا كم أعشق أنغام القناوي ، .. نقف متجاوبين مع أنغام القمبري ، ... " [38]

2-3 : التراث اللامادي :

الموروثات اللامادية الثقافية و الشعبية في إقليم الساورة هي الوسط الحيوي الذي عاش فيه الإنسان الصحراوي ، فهي تُعبر عن تاريخهم وأساطيرهم وأمثالهم وألعابهم ، رقصهم وأشعارهم ،..... ومن أهم التراث اللامادي الموجود في إقليم الساورة بالصحراء الجزائرية نجد الآتي:

3-2-1- الإيقاعات والرقصات الشعبية ، و الفولكلورية :

رافقت الإنسان في صحراء الجزائر عبر مرّ العصور الكثير من الأهازيج والأغاني الشعبية لما يرون فيها من تفريج عن الهموم ، وإدخال البهجة والسرور على الساكنة ، فالغناء والأهازيج حاضرة في العديد من المحطات كالأعراس والختان والأعياد ، والمناسبات ، وأثناء الأشغال الشاقة ، بالإضافة إلى السهرات الليلية اليومية .

فالأغنية الشعبية انفعالية غير أنها بسيطة في انفعالاتها هذه، ليس فيها تعقيد أو صراع في التحليل النفسي أو التأمل الذاتي ، بل إنها تأتي عفوية منبعثة من الذات الشعبية غير المعقدة [39]

– موسيقى القناوي :يطلق عليها أيضا اسم أنغام القناوي، من الإيقاعات الشعبية الفلكلورية المعروفة بمنطقة الساورة ،حاولت الكاتبة أن تصف لنا بصدق الطقوس الغريبة لهذه الموسيقى في قولها عبر سارد الرواية :" – سهرة القناوي كانت رائعة ، المعلم بلال فتح الْمحَلَة . هو يعرف جيدا كم أعشق أنغام القناوي ، وعندما يفتح المعلم بلال المحلة ويخرج الكرابيج ويبدأ في توحده مع شيء لا مرئي يهزّ جسده الأسمر ، تتصاعد البخور ، ومعها تتعالى أنغام القنمبري ، ... يغمض عينيه في

حالة نشوة غير مفهومة لجسد تعذّبه البولالات ، لكننا نجد لآلام جسده لذّة تتحسسها أرواحنا المتعبة ، نقف متجاوبين مع أنغام القنمبري ، مشدودين لقوة المعلم بلال ...نتماسك بالأيدي ، نرقص رقصته ونضرب هذه الأجساد المثقلة بأحلام أرهقتنا إلى أن تنهك قوانا ، نرتمي أرضا ، والبخور تتصاعد .أجواء أحتاجها كلما زاد ألم روحي عن ألم الجسد " [40]

– رقصة البارود : أشارت الكاتبة إلى طلقات البارود كرمز من طقوس رقصة البارود ، فهو يستعمل في الأفراح وفي المناسبات الدينية والموسمية ، إذ تُعد رقصة البارود من الرقصات الفلكلورية التي تُعبر عن تاريخ المنطقة و أصالتها ، يقول السارد وهو يصف لنا القصر : "... الأزقة فيه كتومة تمد أذرعها الترابية لتلتقي جميعا في الساحة الكبيرة التي شهدت أعراس ساكنيه ، ومنها لطالما سُمعت طلقات البارود إيذانا بموسم الأفراح " [41]

3-2-2- الشعر الملحون و المدائح الدينية:

يعتبر الشعر الشعبي فرع من التراث الشعبي ، فالشعر الملحون كان له دور كبير من خلال توظيفه في مختلف أغاني الرقصات الشعبية والفلكلورية ، أما المديح الديني فهو متواجد كثيرا في الصحراء الجزائرية سواء لشعراء محلين ، أو منقول من أقطار أخرى ، فقد عرفه زكي مبارك بقوله هو " فن من فنون الشعر التي أذاعها التصوف، فهي لون من التعبير عن العواطف الدينية وباب من الأدب الرفيع لأنها لا تصدر إلا من قلوب مفعمة بالصدق والإخلاص "، حيث تعج بحب رسول الله صلى الله عليه وسلم والإشادة بغزواته وغالبا ما تبدأ بالصلاة عليه تقديرا وتعظيما [42]. وقد حاولت الكاتبة أن توثق بعضا من الأشعار التراثية الملحونة ، وكذا مقاطع من المديح الديني في روايتها.

أ) من الشعر الملحون:

وظفت الروائية بعضا من الشعر التراثي الملحون على لسان (فرقة السد) الغنائية ، يقول السارد في ذلك: " ..، تستوطن حناجر رجال (فرقة السد) .يغنون فيزرعون الربيع في كل الفصول ، ....أصواتهم تمطر لحنا ..:

ما يدوم حال ، ما يدوم
لو كان الدنيا تدوم ، تدوم للي كانوا هنا " [43]

كما أشارت الكاتبة إلى شعر ملحون آخر على لسان (أبناء لحمر)، يقول السارد : " في أجواء السيارة موسيقى أخرى و أنغام (الحيدوس) بحناجر أبناء لحمر الذين عرفوا شموخ القصر : شربت من رأس العين

منين كان الماء زين
وكي تخلطوا اليدين
تخلط الماء والطين " [44]

ب) من المدائح الدينية:

طلباوي وظفت أيضا مقطعا من المديح الديني في روايتها على لسان السارد وهو يصف لنا خالتي الياقوت ومدائحها : " والدة جاري خالتي الياقوت تلك السيدة الطاعنة في السن وفي الوجع ، منذ مدة لم أرها ، ها هو هذا الليل يقذفها إلى طريقي ، ... تمشي أمامنا في شموخ نخلة صحراوية لها صبر الجمال .صوتها كان يسكب في روحي إكسير الفرح فلا أملّ من غنائها:

باش نبداوْ ذكر الله يالقوم العيانا
بالصلاة على محمد هكاك بغيت أنا " [45]

3-2-3- الحكايا و المعتقدات الخرافية :

إن الذاكرة الشعبية في الصحراء الجزائرية هي نتاج الموروث الثقافي الشعبي ، فقد ساهمت كثيرا في الحفاظ على التراث ، بما تحمله من قصص وحكايا وغرائب تارة من نبع الواقع ، وتارة أخرى من نسج الخيال أو من المعتقدات الخرافية ، وهذا ما نلاحظه في الكثير من الموروثات الشفهية بإقليم الساورة ، ومن أهم ما ذكرته الكاتبة في هذا المجال نجد ما يلي :

* الحكايا الخرافية :

أ) سردت لنا الكاتبة حكاية خرافية مفادها أن في وادي الدبدابة قلتة ، تُدعى (قلتة حمو قيو) كانت سببا في شلل أبنائهم لأن هناك عفريت كان رابضا فيها، يقول

السارد : " في الوادي (قلتة حمو قيو) تلك البركة التي لا ترحم ، كثيرا ما نسب سكان الحي سبب شلل أبنائهم إلى العفريت الرابض فيها ، ثم أدركوا بأن العفريت ما كان سوى مرض التهاب السحايا " [46]، القلتة معناها بركة ماء

ب) تقص لنا الكاتبة حكاية خرافية أخرى تسردها لنا خالتي أمّ الخير تقول فيها على لسان السارد ما معناه : أن أحد السلاطين في العصور الغابرة توعد زوجته إن لم تلد له ولد قطع رأسها ، خرج بعدها في رحلة صيد تدوم شهورا ، في أحد الأيام جاء البشير ينادي بقدوم السلطان ، وقبل أن يدخل إلى قصره أحضرت جارية زوجة السلطان لوحة خشبية ، رسمت عليها ملامح صبي ، ".. راحت الجارية دون تعب أو ملل تجري وتردّد :

يا عاقد الأمور حلّها

تجي مزنة وتبللها

نداء تصاعد إلى السماء ، وجاءها الهاتف:

يا غنجة يا أمّ الرجا

اللي عند الله راه جا .

تلبّدت السماء بالغيوم ...، ومع أول قطرة غيث ،..تحولت ملعقة الخشب إلى صبي من لحم ودم... " [47]

ج) سردت لنا المؤلفة حكاية أسطورية تُسمى بـ: (الكراكر) ،وهي عملية إنتحار جماعي بسبب نفاذ المؤونة قد تكون من الواقع أو من نسج الخيال ،يقول السارد في ذلك " ...فأتذكر الكراكر وأتذكر أجدادنا حين نصبوا خيمة الحجر و أعلنوا قرار النهاية لأنهم لم يعودوا قادرين على إطعام أنفسهم..."[48] ،ويقول السارد أيضا في نفس السياق، ما أخبره به صديقه الرجل الحكيم سي مختار نقلا عن ابنته بهيجة:" بالنسبة لها كانت هذه أبشع عملية انتحار جماعي سمِعَت عنها ، لا يهم إن كانت الرواية صحيحة أم لا ،فكثيرا ما تختلط الأسطورة بالحقيقة في هذه الصحراء الكتومة ،التي تُبقي على هذه الكومات من الحجارة "[49]

د) من الحكايات الخرافية الأخرى المتداولة بإقليم الساورة المنقولة من ناحية تندوف بالصحراء الجزائرية ما ذكرته الكاتبة: وهو أن هناك طفل فقد والديه وعاش مع النعام ، وكان يمصّ إصبعه فيدر له الحليب ، يقول السارد في ذلك : " دخلنا القاعة الأولى ، علت جسدي قشعريرة وأنا أقف أمام طفل يمصّ أصبعه..تذكرت حكاية هدّارة طفل النعام ، ذلك الطفل الذي يقول عنه سكان مدينة تندوف بأنه فقد والديه فنام تحت جناح نعامة ، ومن يومها صارت له أمّا ، يقولون بأنه كان يمتصّ إصبعه فيدرّ له الحليب " [50]

* المعتقدات الخرافية :

ذكرت لنا الروائية إحدى المعتقدات الخرافية بمنطقة الساورة ، وهو أن رائحة الجاوي تطرد الأرواح الشريرة من البيت، يقول السارد :" ولجنا البيت القصوري وكأننا نلج معبدا هنديا البخور تعبق في المكان برائحة الجاوي ، خالتي أمّ الخير تعتقد بأن الجاوي يطرد الأرواح الشريرة والحسد ، لا بد من هذا البخور بعد تنظيف البيت وترتيبه ... " [51]

خاتمة :

نستنتج في الأخير أنّ:

– رواية "الخابية" رواية أدب الصحراء بامتياز ، حيث استطاعت الكاتبة أن توظف فيها العديد من الموروثات المادية واللامادية بإقليم الساورة بصحراء الجزائر عبر حُلة سردية فيها الكثير من عبق الماضي وأصالة التاريخ.

– حاولت الكاتبة إبراز صراع الإنسان كتحدي للبقاء أمام قساوة الصحراء الجزائرية.

– أرادت الكاتبة أن تستنطق التاريخ عبر استحضارها لمجموعة من الحكايا والأساطير الخرافية المُستمدة من عمق الصحراء الجزائرية بغرض حفظها وتوصيلها للقارئ.

– دعت الكاتبة إلى الاستثمار في العنصر البشري بهدف التطور ومواكبة الركب الحضاري بدل اهتمامه الزائد بمؤونة الحياة.

وبناءا على ما سبق فإن العمل على توظيف مختلف العناصر التراثية الثقافية والشعبية بأشكالها المتعددة في السرديات المعاصرة أصبح ضرورة ملحة ،فالتواصل بين الأجيال مرهون بتحديات التوثيق والتدوين للتراث في شتى العلوم والمعارف ، وللمحافظة على هذا الإرث وجب علينا تشجيع البحث و التعريف به، وإبراز قيمته التاريخية والعلمية والحضارية. إذ أن الغوص في الثقافات الشعبية يبقى في حاجة إلى بحث دائم ومستمر من أجل المُضي قُدما بهذا الموروث والحفاظ عليه من الاندثار والضياع . ولعل تراث الصحراء الجزائرية خير فضاء للباحثين والمبدعين في هذا المجال.

الهوامش

1 – سورة الفجر ،الآية :19

2 – مجمع اللغة العربية، معجم الوسيط ، مكتبة الشروق الدولية ، ط 04 ،مصر، 2004 ، ص:1024 .

3 – حسن علي المخلف ، التراث والسرد ، منشورات وزارة الثقافة والفنون والتراث ، قطر، 2010، ص: 14

4 – موقع ويكيبيديا (الموسوعة الحرة)، تراث ثقافي غير مادي، العنوان الالكتروني : www.ar.wikipedia.org/wiki/ ، تاريخ التصفح : 2019/02/22 على الساعة 19:47

5 – نفس الموقع، نفس تاريخ التصفح ، على الساعة 19:40

6 – جميلة طلباوي ، الخابية (رواية) ، منشورات المؤسسة الوطنية للإتصال النشر و الإشهار ،الجزائر ، 2014، ص: 12

7 – المصدر نفسه ، ص: 14

8 – المصدر نفسه، ص: 22

9 – المصدر نفسه، ص: 101

10 – المصدر نفسه، ص: 24/23

11 – المصدر نفسه، ص: 24/23
12 – المصدر نفسه، ص: 32/31
13 – المصدر نفسه، ص: 101
14 – الشيخ مولاي التهامي غيتاوي ، لفت الأنظار إلى ما وقع من النهب والتخريب والدمار بولاية أدرار إبان احتلال الاستعمار ،منشورات دار الكتب العلمية ، بيروت ، 2011، ص:40
15 – جميلة طلباوي ، الخابية (رواية) ، ص: 14
16 – المصدر نفسه، ص: 13
17 – المصدر نفسه، ص: 24/23
18 – المصدر نفسه، ص: 30
19 – المصدر نفسه، ص: 79
20 – المصدر نفسه، ص: 69/68
21 – المصدر نفسه، ص: 72
22 – المصدر نفسه، ص: 105/104
23 – المصدر نفسه، ص: 31
24 – المصدر نفسه، ص: 11
25 – المصدر نفسه، ص: 13
26 – المصدر نفسه، ص: 149
27 – المصدر نفسه، ص: 110
28 – المصدر نفسه، ص: 34
29 – المصدر نفسه، ص: 105/104
30 – المصدر نفسه، ص: 24
31 – المصدر نفسه، ص: 175
32 – المصدر نفسه، ص: 149

33 – المصدر نفسه، ص: 31
34 – المصدر نفسه، ص: 105/104
35 – المصدر نفسه، ص: 31
36 – المصدر نفسه، ص: 31
37 – المصدر نفسه، ص: 80
38 – المصدر نفسه، ص: 34
39 – لطفي الخوري ، في علم التراث الشعبي ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، 1979 ، ص: 18
40 – جميلة طلباوي ، الخابية (رواية) ، ص: 34
41 – المصدر نفسه، ص: 24
42 – سعاد حميدة ، المديح الديني في الشعر الشعبي الجزائري في تبسة ، مجلة إشكالات في اللغة والأدب ،المركز الجامعي تمنراست ، الجزائر ، العدد 08 ، ديسمبر 2015 ،ص:211
43 – جميلة طلباوي ، الخابية (رواية) ، ص: 35
44 – المصدر نفسه، ص: 35
45 – المصدر نفسه، ص: 12/11
46 – المصدر نفسه، ص: 60
47 – المصدر نفسه، ص: 114
48 – المصدر نفسه، ص: 79
49 – المصدر نفسه، ص: 175
50 – المصدر نفسه، ص: 210/209
51 – المصدر نفسه، ص: 110